أحد.. والتكامل
في منهج الإعداد والبناء
والواقع المعاصر

«١»

حاجتنا اليوم ـ وكلَّ يوم ـ إلى أن نضع مفهومات الكتاب العزيز في بناء الإنسان وتنمية قدراته على الثبات: بإيمان ومنهجية في وجه الظروف المتغيرة والمتباينة، وأن يكون مع العقيدة الصحيحة، وأبعادها الخيِّرة في بناء الإنسان وصنع الحضارة المثلى، أياً كانت ساحات هذا البناء وميادين تلك الصناعة الحضارية المتوازنة التي يحصل التحرك في أرجائها بفاعلية حازمة وجهة صادقة.. هذه الحاجة تبدو في الواقع المعاصر ملحَّة أكثر من أي وقت مضى، لما يثقل الأيام والليالي من صعاب المهمات التي تنتظر العاملين، ولما يتضاعف من صوارف الخير ـ نتيجة العدوان الشرس على الإسلام في أرضه وفكره وثقافته وتشريعه. ويعين على شدة تأثيره السيئ ضعفُ النفوس وخواء القلوب من نور الهداية عند الكثيرين.. وبخاصة صنَّاع القرار.

وإذن فلا بد من الاعتصام بتلك القوة البانية التي تعدُّ بعمق لا يدع جانباً من جوانب النفس الإنسانية إلا ولجه؛ إصلاحاً لخطأ بحكمة تجلِّيه وتكشف عن المقدرة على ما يحقق الفائدة من وقوعه على طريق الجهاد في المستقبل القريب والبعيد، أو تثبيتاً لصواب يرفع راية الحق ويجدِّد العزيمة الإيمانية والأمل العريض بنصر اللَّه العزيز الحميد.

وكانت الاستنارة بقبس من تلك القوة من خلال ما سبق من نظرة عجلى في واحد من المعالم القرآنية، طالعتنا بها تلكم الآيات التي تنزلت على النبي المصطفى في شأن ما حصل في معركة «أُحد»، من سورة آل عمران.

ولقد رأينا هنالك التذكير بضرورة الدأب على التحرك في ضوء العقيدة، واستئصال الهفوة من أعماق النفس المؤمنة التي تهفو أبداً إلى الشهادة في سبيل اللّه، لكيلا تتحوَّل هذه الهفوة إلى ظاهرة مَرَضيَّة تتسبب ـ لا قدر اللّه ـ في إنهاك المجتمع المسلم، بدلاً من أن تتنامى وتتجدَّد فيه أبداً روح الثبات على نصرة الحق، ومقارعة الباطل مهما كانت الظروف، ومن وراء ذلك مرضاة اللّه وحسن العاقبة في الدنيا ويوم الدين!

ويحسن أن نعيد إلى الذاكرة أن مما أشرق به المعلم القرآني في آيات «أُحد» عظمة التوازن في منهج الإعداد الرباني؛ ففي غمرة العتب الشديد والتهديد والوعيد: لا يضيع عمل عامل ولا ينتقص حق ذي حق.

والحق أن هذا التوازن من أكرم لبنات البناء في شخصية المسلم، لما أن ذلك يشعره ـ على أكمل وجه ـ بعدل اللّه ولطفه في الأحوال جميعاً، وأن الكلمة المؤدِّبة لا تعني ـ بحال من الأحوال ـ انحسار اليد الحانية الكريمة عن العطاء؛ الأمر الذي ينمي في هذا الجندي من جند اللّه القدرة على الاستجابة لما يكون من التصويب، واتخاذ المواقف التي تقدّم مراد اللّه ورسوله على مراد الإنسان واجتهاده. وهذه قضية لا يحدها زمان أو سبب نزول؛ فحاجة كل مسلم ومسلمة متجددة إلى ذلك مع كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فيما يأخذ المؤمن أو يذر في هذه الحياة!

من أجل هذا كان ما نقوله على هذه الساحة برمتها هنا وهناك ـ واللّه أعلم ـ ضرورة ملحة اليوم في إعداد الأجيال لمواجهة متطلبات البناء في ظروف قد لا تبدو مشجعة لمن يستسلمون لليأس، ويفتحون للتشاؤم منافذ وأبواباً، قوامها تعلُّلات قد يكون منها حب العافية المبطَّن، الذي ينمو ويترعرع في محاضن الكسل والتواني والضعف!

واستجلاء الصورة بكاملها استجلاءً يمليه الحرص على الانتفاع بالوقائع، بعد التدبر التام للكلمة القرآنية الهادية.. هذا المطلب: يقتضينا متابعة العطاء القرآني فيما تلا من الآيات؛ فبعد ذلك التوجيه الحكيم الجازم الحازم من خلال العتاب على ما حصل يوم أحد، بدءاً من مغادرة جبل الرماة، نجد دعوة إلى الاعتبار بالماضين من أولئك الذين صبروا على تبعات البناء، عملاً وجهاداً في طاعة لمن تجب طاعته؛ فلم يهنوا لما أصابهم في سبيل اللَّه ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وكان اللَّه معهم؛ فهو سبحانه يحب الصابرين؛ ذلكم قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والعظيم العظيم أنهم كانوا ـ وهم يكدون في سبيل اللَّه ويعملون بثبات وشموخ إيمانيين ـ يشعرون ـ وقد اطمأنت قلوبهم وصفت من أكدار الرغبات الزائلة والمتاع القليل نفوسهم ـ بكريم فضل اللَّه أن ندبهم لتلك المهمة العظيمة، مهمة تحرير الإنسان من عبودية العباد وإخراجه منها إلى عبودية الخالق جل وعلا، وأنهم مفتقرون دائماً لمغفرته سبحانه ورحمته، داعين بذلك متضرعين يخافون أن يكونوا مفرطين في جنب اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[آل عمران: ١٤٧] .

وهذه الفقرة من الدرس العميق الذي يجب أن نعيه في حاضرنا كما وعاه السلف الصالح ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ مدعاة لكثير من التأمل والاعتبار، خصوصاً ممن أقامهم اللَّه على ثغور التربية والإعداد ومواقع التنفيذ!!

إن هؤلاء الذين ذكر اللَّه ما ذكر من أوصافهم: همُّهم أن يثبت اللَّه أقدامهم، بعد غفران ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، فلا يتزعزعوا عن الغاية التي من أجلها نذروا أنفسهم لله، ولا تعبث بهم الأهواء، ويربط على قلوبهم فلا يحيدوا عن الطريق رغبة أو رهبةً، وفي خاتمة المطاف: أن ينصرهم اللَّه على القوم الكافرين.

وهذا الوضوح في الغاية ضمانة أي ضمانة لاستمرار عملية البناء كما يريدها المنهج الرباني، وتنمية إمكانات من اختيروا لهذا الاستمرار المبارك.

وحسنُ العاقبة في الدنيا والآخرة نعم الجزاء ممن لا يضيع عمل عامل منهم ذكراً كان أو أنثى ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[آل عمران: ١٤٨].

أحد.. والإنسان والتعامل في منهج الإعداد والبناء

«٢»

ما لا غنى عنه للمربين والذين يرتادون للأمة طريقها في البناء وتنمية إمكانات الفرد ومؤهلاته، ليكون قادراً على الإفادة من كل الإمكانات الروحية والمادية المتاحة على طريق العطاء المثمر المنتج.. ما لا غنى عنه لهؤلاء وأولئك: قراءة جديدة واعية للمنهج القرآني في بناء شخصية المسلم كيما تتوافر له أهلية أن يكون على المستوى اللائق للرسالة التي يحملها رسالة الإسلام، وكيما يكون سلوكه وهو يسهم في إدارة حركة الحياة عنوان صدق انتمائه إلى هذه الرسالة التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس.

وليس عجباً من العجب أن تكون النقلة طبيعية من بناء الفرد إلى بناء المجتمع، إذ نرى أن من ثمرات بناء شخصية الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، بناء المجتمع المسلم المتفاعل مع الحياة في ضوء الشرعة المباركة، القادر على توجيه دفتها وجهة الخير. وإنه لمنهج يتسم ببالغ الحكمة في التعليل وبالغ الدقة في التحليل والتحويل، لما أنه لا يغفل الانتفاع بحجم الواقع، ولا ينحسر عن الإفادة من وقائع التاريخ، ولا عن العظة بما جاء به الخبر الصادق عما يكون يوم يقوم الناس لرب العالمين، من وضع الموازين بالقسط وأن كل نفس توفَّى ما كسبت وهم لا يظلمون.

وهذه لمحة نضيفها إلى ما وقفنا عنده فيما سبق من القول استضاءة بهدي المعلم القرآني في سورة آل عمران ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران: ١٤٦] الآيات،

في أعقاب الكلام على ما حصل يوم «أُحد»؛ ذلك بأن الآيات تضع أيدينا على حقيقةٍ سداها ولحمتها أن البشارة كانت مع النذارة، وأن الرحمة صحبت التهديد والوعيد، وذلكم عنوان التواؤم بين الطريق الهادية ومقومات النفس الإنسانية ـ كما فطر اللّه الإنسان عليها ـ وهو سبحانه الذي يعلم من خلق ولا أحد يعلم علمه ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك: ١٤] وسننه في الكون وعلاقة الإنسان به وبالحياة لا تتبدل ولا تتحول.

لقد طلعت علينا الآيات بحقيقة ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وأشرقت بالكلمات المضيئات هداية ونفعاً ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[الزمر: ١٧] وها نحن نجد هذه الكلمات الطيبة الودودة من اللّه تبارك وتعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] وسبحان المنعم المتفضل الذي يصطفي من عباده من يحبهم ويحبونه﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾الأمر الذي يذكر بأولئك الذين قال فيهم ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [المائدة: ٥٤].

الواقع أننا مهما تشعبت بنا سبل المعرفة ونحن نتطلع إلى استئناف طريق التمكين، وأن نكون صناع القرار الذي يعود على أمتنا بالخير، وأصعدنا في ميادين البناء على تنوعها في الثقافة والاقتصاد والسياسة وما إلى ذلك، وتوافر لدينا ثقل من الإمكانات التي لا بد منها لتحقيق الغايات الكبرى بوجه عام: يظل الإنسان هو المحور للانتفاع بذلك كله ووضعه مواضعه التي تؤدي إلى الإنتاج النافع المفيد...

أجل يظل هذا المخلوق الذي صنعه اللّه على الصورة التي يتمكن معها من الإفادة من قانون التسخير كما أراد اللّه ذلك التسخير الذي تكرر التصريح به بسعة وشمول في مواطن عدة من القرآن الكريم... خلقه على هذه الصورة وكرّمه وفطره على التوحيد ولكن الانحراف يأتي من سوء التربية، وضلال الإعداد، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

على أية حال: يظل هذا المخلوق ـ كما جرت الإشارة ـ هو الأداة الفعالة بما فطره اللَّه عليه، وأهّله، وأعطاه من الإمكانات العقلية والقلبية والبدنية وغيرها، الأداة الفعالة أيضاً في استثمار ما يتوافر للأمة من الإمكانات البشرية، والثروات الاقتصادية وغيرها ناهيك عن كونها أتحفت التاريخ ببناء الحضارة المثلى التي لا تشكو من المعوقات. وتسييرَ ذلك كله في مسالكه التي ترتفع بالأمة إلى مصاف الأقوياء الكرماء الذين لا يعوزهم الانضباط بضوابط الخير واحترام الإنسان، والتطلع إلى مرضاة اللَّه والعقبى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وعناية القرآن بالإنسان على صعيد التكامل المنشود في البناء: خير دليل لما نقول. أرأيت كيف اتجهت الآيات في العتب على من حصلت منهم الغفلة، وانتابهم شيء من الضعف عن تحقيق مقتضيات الطاعة الواجبة في ساحة الجهاد.. وجهة الإفادة من الواقعة لمزيد من الإعداد والتكوين! ومزيد من إلقاء الأضواء على بؤرة الضعف كي تجتنب، والغفلة كي يكون المجاهد عنها بمنجاة، ثم ربط ذلك كله بمحورية البناء السليم دون قيد المكان والتاريخ، وإنماء المشاعر الإيمانية الصادقة التي ينتفع بها حتى الذين يجيئون من بعد من حصلت منهم الواقعة، ولا تسل عما يلاحظ من إشراق الكلمات الهاديات بالتوجيه إلى توفير الحوافز التي تجدي جدواها حين تنطلق من العقيدة ومحبة اللَّه ورسوله عليه الصلاة والسلام، وتنبعث انبعاثاً ذاتياً غير مرهون بتكلف، أو رغبة بمغنم مادي.

ثم أرأيت إلى تحويل الأنظار إلى الاعتبار والمقايسة، وسنة اللَّه الماضية في عونه لمن صدقوا مع أنبيائهم، فلم يضعفوا تحت مطارق الشدة من داخل النفس أو من خارجها، ولم يستكينوا لوطأة الظروف المتقلبة، والمعوقات التي قد لا تكون في الحسبان!! ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران: ١٤٦].

ألا ما أوضحه دليلاً على صدق الانتماء إلى رسالة خاتم الأنبياء الذي أخرجنا اللّه ببعثته من الظلمات إلى النور: أن تجعل الأمة ـ على صعيدي التنهيج والتطبيق ـ من معالم الكتاب العزيز خير نبراس في رحلتها عبر ميادين الحياة، وبخاصة ميدان بناء الإنسان المؤهل لتحقيق الغايات الكبار، كما يشاء ربنا تبارك وتعالى، وكما يتسق مع البيان النبوي قولاً وعملاً في السنة المطهرة والسيرة العطرة.. الإنسان الذي كرمه اللّه وأهلّه الخلافة في الأرض.

ومن أجدر من المسلم ـ أن لو أنصف وحزم أمره على طريق الخير والبناء السليم ـ بأن تقوم على يديه اليوم بنية حضارية لا ترهقها منطلقات الحضارة الحديثة. وما عليها من مؤاخذات، واللّه يحكم لا معقِّب لحكمه وهو أسرع الحاسبين.